الخرّوبي وآثارُه العِلميّة

للدكتور :
عمر مولود عبدالحميد

المقدمة:

ساهمت بلادنا "ليبيا" منذ الفتح العربي في مد العالم الإسلامي بعلماء أفذاذ، ورجال عظام، وهبوا أنفسهم للتعلم والتعليم، وكرسوا جهودهم على صنع جيل يقدر المصلحة ويعمل من أجلها، ويعرف الواجب ويستميت في الدفاع عنه والحفاظ عليه، غير أن الكثير منهم بقوا جنوداً مجهولين لم يجدوا من يعرف بهم ويذكر فضائلهم وما قاموا به من جميل الخصال، وجليل الأعمال، ومن بين أولئك الجنود المجهولين لدى الكثير من شبابنا رغم كثرة تآليفه وعظم مواقفه التي حفظها التاريخ لنا هو: أبو عبدالله محمد الخروبي ذلكم العالم العامل، ذو الباع الطويل في مختلف أنواع العلوم والمعرفة وخاصة العلوم الشرعية واللغوية على اختلاف فروعها.

ويجدر بنا قبل التعرض لذكر تآليفه وآثاره العلمية ومواقفه الجليلية أن نذكر شيئاً عن حياته.

نسبه ومولده:

إنه الشيخ الورع العالم المفضال أبو عبدالله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي المولود بقرقارش[1] بضواحي مدينة طرابلس ويوصف أحياناً بالخروبي الصغير للتفريق بينه وبين والده، ويغلب على الظن أن ولادته كما قال لي الأستاذ المؤرخ: المهدي أبو عبدالله الجزائري كانت سنة 880هـ وكان والده الشيخ علي الخروبي من علماء البلاد الأفذاذ الذين جمعوا بين غزارة العلم وصالح العمل، فكان ابنه المذكور نبتة صالحة من بذرة طيبة، وفرعاً قوياً زكا من أصل له قدم راسخة في علوم الظاهر والباطن.

---

(1) قرقارش كانت قرية صغيرة تعتبر قديماً من ضواحي مدينة طرابلس وتبعد عنها حوالي خمسة كيلومترات تقريباً ولكن زحفت عليها المدينة المذكورة وتكاد تكون جزءاً منها في هذا الوقت وسميت قرقارش باسم مؤسسها الأمير قرقوش الذي كان والياً على طرابلس في القرن السادس الهجري.

طلبه للعلم:

بدأ حياته التعليمية بالتوجه إلى "الكتّاب" لقراءة القرآن الكريم كعادة من عايشوه أو سبقوه في مجال التعلم فإن الكتّاب يعتبر عند الأقدمين بمثابة المرحلة الابتدائية من الدراسة والتعليم، ثم لازم بعض علماء البلاد الأصليين وغيرهم كوالده الذي كان وقتها محط الأنظار وقبلة طلاب العلم والمعرفة، وكالحاج قاسم بن قلاّع وخليفة أبي غرارة وعبدالنبي الجبالي والولي محمد شأن الشأن وأبي عبدالله محمد الشهير بزيتون والشيخ محمد بن عبدالرحمن الحطاب الذي كان يثني عليه ثناء عاطراً حيث يقول فيه:

ربانا أحسن تربية وأدبنا أحسن تأديب، واجتهد في تعليمنا، وكان يقوم بشؤوننا ويتحفنا بخدمة الصالحين وموالاة الفقراء ويقول: من خدم شيخاً كبيراً لكبر سنه قيض الله له من يخدمه في آخر عمره، وإنا وجدنا بركة ذلك وثمرة خدمتنا لأولياء الله تعالى ولعبيد الله فوفى الله لنا المكيال وأمال إلينا قلوب الرجال فكنا إذا أمرنا أُطعنا وإذا أردنا أُعطينا وإذ استشفعنا قبلنا ولله الحمد والشكر. اهـ[1].

كما تتلمذ لأحد تلاميذ والده الذي كان قد التقى به في مصراته وهو العارف بالله صاحب التآليف الكثيرة العظيمة الشيخ أحمد زروق الذي أثنى صاحبنا عليه وعلى عنايته به ورعايته له بقوله: وهذا الشيخ "يعني أحمد زروق" له فينا تربية وتأديب ورثنا منه أوفر نصيب، فكان رحمه الله تعالى قد تولى تربيتنا بعد المولى الوالد فكان علينا عطوفاً وبنا رؤوفاً. وكان يرعى ذمامنا رعياً للمولى الوالد، ولقد جرت له معنا قضايا لا نطيل بذكرها وله علينا حقوق لا نقوم بواجبها وشكرها فجزاه الله تعالى وجميع أشياخنا أفضل الجزاء .اهـ. هذا: وقد ذكر الخروبي وهو يتحدث عن سفره إلى قرية جنزور ليتتلمذ عن الشيخ العارف بالله عبدالنبي الجبالي بتكليف

(1) أنظر المنهل العذب للنائب، ص203.

من أستاذه زيتون، أنه مكث عنده بجنزور هو وأخوه في الله أبو بكر بن إبراهيم النفاتي ثلاثة أيام، ولما أرادا الانصراف والرجوع إلى طرابلس ليواصلا التحصيل عن الأستاذ زيتون وغيره ممن كانوا بمدينة طرابلس من العلماء سار الشيخ الجبالي في توديعهما، وعند مفارقته لهما اختص الشيخ الخروبي بقوله له: يا ابن الشيخ لا ينبغي للعبد أن يطلعه الله على غيب السماوات حتى يكمل أربعين سنة وهي السنة التي يكمل فيها عقل الانسان وفيها أرسل (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس، قال الخروبي: فلما فتح الله علينا بما فتح ومنحنا من المواهب الربانية ما منح تذكرت كلام الشيخ فإذا الفتح وقع لنا في الوقت الذي أشار به الشيخ وكنت . حين وقوع هذه الإشارة منه . ابن نحو اثنتين وعشرين سنة أو ما يقاربها.

وهكذا نجد الشيخ الخروبي مطيعاً لأساتذته منفذاً لتوجيهاتهم عاملاً على كسب مودتهم ورضاهم؛وذلك كله يعتبر من الشروط الأساسية لبلوغ المرام والوصول إلى درجة الكمال في التعلم والتحصيل، فهل يمكن لطلابنا ان يعملوا على تحقيق ذلك في هذا الوقت الذي نحن أحوج فيه مما مضى إلى أن يكون العلم وسيلة لا غاية وطريقاً للوصول إلى الكمال نرجو أن يحصل منهم ذلك.

بداية الهداية:

لاحت تباشير الهداية التي حبى الله بها الخروبي بسبب ملازمته للعلماء وأصحاب الطرق الصوفية وتردده على حلقات الذكر التي كانت لها أماكن خاصة في زمانه وذلك عائد إلى التربية والتوجيه اللذين حظي بهما في بيته حيث إن والده كان من أهل العلم والمعرفة والورع والتصوف.

وقد ذكر الخروبي أنه كان ذات يوم صحبة أستاذه الحاج قاسم بن قلاّع فوقعت له معه واقعة كانت بداية الخير، قال: وذلك أنا كنا جميعاً عشية يوم من الأيام فتذاكرنا حالة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزهده وقرأنا شيئاً من رسالة سيدي يوسف العجمي، وأنشدنا من لامية عمر بن الفارض قوله:

هو الحب قاس بالحشا ما الهوى سهل

فمـــا اختـــاره مضـــنى بـــه ولـــه عقـــل

فطاب الوقت وصفا وحن الروح إلى أحوال أهل الوفاء وفتح الباب وزال الحجاب ونادى منادي الوصال: هلم وتعال، فنزعت ثيابي وأجبته بلبيك ها أنا منك وإليك، وأخذت ثياب سيدي الحاج قاسم ولبستها ولبس ثيابي وعمدت إلى دارنا فكان لي فيها بعض طعام فأخرجته وفرقته على من احتاجه وبعت ثيابي من غير أن تعلم الوالدة رحمها الله تعالى فكانت قيمتها اثنين وعشرين ذهباً طرابلسية تزيد قليلاً أو تنقص عن ذلك وكتبت في زمام كل من كانت له عندي تباعة وفرقتها كلها، فمن الآخذ ومن التارك المسامح إلى أن نفدت الدراهم.

فعلمت بذلك الوالدة وسرت بما صنعت، وهذا كله من فضل الله ومنه ومعرفة الصالحين وذكر أحوالهم والنظر في كتبهم ..."[1].

كما ذكر أن الحاج قاسم المذكور كان يأتيه وهو صغير فيأخذه معه إلى روضة سيدي عبدالله الشعاب الموجودة حالياً على شاطئ البحر بمدينة طرابلس واحياناً يأخذه إلى المسجد الأعظم فيتذكران حكايات الصالحين ويعبدان الله بالصلاة والقراءة والذكر والمدارسة في مختلف العلوم، وخاصة ما يتعلق بجلاء القلوب وصفائها إلى أن يملأ النعاس عيونهما فينامان حيث كانا بعد أن يفرش الشيخ جبته التي كان محافظاً على لباسها لتلميذه ومريده لئلا يصيبه البرد.

ولا شك أن هذه القصة التي ذكرها الخروبي عن نفسه تصور لنا بداية تعلقه بالتصوف وارتباطه بأهل الآخرة وتجرده عن الدنيا وماديتها، وترسم لنا الطريق الذي اختاره لنفسه منذ صغره إلى أن لقي ربه، فكان به قوياً لا يخشى إلاَّ الله، وكان به متوكلاً لا يجمع الدنيا خوفاً من الفقر، وكان به طاهر القلب لا يضمر لأحد شراً وهذه هي سمات المؤمنين الصادقين الذين عناهم الباري بقوله: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا

---

(1) أنظر المنهل العذب ، ص214 وما بعدها.

وفي الآخرة".

رحلته إلى الجزائر:

لم ينص المؤرخون في ترجمتهم للخروبي على السنة التي ارتحل فيها إلى الجزائر ولعلها كانت سنة 916هـ الموافقة 1510م. وهي السنة التي[1] احتل الإسبان فيها مدينة طرابلس وعاثوا فيها فساداً وتسلطوا على العباد فهاجر الخروبي كغيره ممن لم يرضهم العيش فيها مع الغزاة الغاصبين وخاصة العلماء والأعيان ووجهاء البلاد وقد توجه إلى الجزائر حيث تولى التدريس والخطابة في الجامع الأعظم الذي كان ولا زال يسمى "مسجد المالكية" وقد زرته مستفسراً عن آثاره العلمية فيه فوجدته مسجداً عظيماً ومتسعاً يؤمه كثير من المصلين وقارئو القرآن وسنذكر نتيجة بحثي عن آثاره عند تعرضي لذكر الآثار العلمية له.

ورغم ما كان عليه الخروبي من غزارة العلم وقوة الإطلاع فقد رأى أن يأخذ عن علماء الجزائر وأن يتتلمذ لهم، لذا قصد قلعة بني راشد التي كانت وقتها زاخرة بالعلماء الأفذاذ أمثال أحمد بن يوسف الراشدي[2]، وأمثال الشيخين المحدثين عمر العطوي الراشدي وعمر بن زيان المديوني وغيرهم. وقد قام بواجبه العلمي تعلماً وتعليماً في عاصمة الجزائر وضواحيها ومختلف مدنها خير قيام، كما أسس فيها مدرسته الصوفية التي كان فيها متأثراً بوالده أكثر من تأثره بأستاذه أحمد زروق حيث كان يرى التشدد في الإنكار على تلقين الأوراد للعوام زيادة على ما اتفق فيه مع أستاذه المذكور مثل استنكارهما للبدع وأهلها، وكان شديد التحامل على مشائخ الطرق في زمانه سواء في الجزائر أم غيرها وكان يقول في معرض حديثه عنهم:

---

(1) انظر المنهل العذب، ص197.

(2) ذكر الناصري في كتابه الاستقصاء ، ج5، ص51 ، أن الشيخ أحمد بن يوسف كان رجلا فاضلا وله كرامات وانفعالات وقد توفى سنة سبع وعشرين وتسعمائة". هذا: وله مسجد عظيم لا زال يحمل اسمه في المدينة التي ينتسب إليها وهي مدينة مليانة، وصليت فيه الجمعة وقد أعجبت به وباتساعه وشاركت في قراءة سورة "يسين" مع جماعة مختلفي الأعمار تعودوا قراءتها بعد صلاة الجمعة في ذلك المسجد وكان ذلك بتاريخ 5 أغسطس 1972م حيث كنت في المؤتمر الإسلامي الذي يعقد سنوياً في الجزائر ويحضره كبار العلماء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

"ظهر في زماننا هذا دجالون.... لم يبنوا أمرهم على سبيل سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وادعوا المراتب العالية والمقامات الإحسانية... قاتلهم الله يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون" وكلامه هذا موجه إلى المتواكلين الذين اتخذوا الدروشة طابعاً لهم عما سواهم وأخلدوا إلى الراحة وكأنهم حسبوا أن السماء تمطر ذهباً وفضة دون أن يدركوا ما يرمي إليه الإسلام من دعوته إلى العمل والمثابرة إدراكاً حقيقياً.

وفادته إلى المغرب:

نشط الخروبي في أداء رسالته العلمية على الوجه الأكمل حتى صار محل تقدير واحترام الناس جميعاً، وأصبحت له شهرة عظيمة مكنته من تثبيت أقدامه وتحسين علائقه مع الحكام الأتراك الذين كانوا يحكمون البلاد بعد إجلائهم للإسبان عنها آنذاك مما جعلهم يسندون إليه مهمة السفارة مرتين الأولى كانت سنة 959هـ والثانية سنة 961هـ إلى ملوك المغرب من الشرفاء السعديين الذين كانوا في حرب حامية الوطيس معهم ليتولى عقد هدنة بينهم وتحديد الحدود التي كانت سبب تنازع الطرفين، وقد استقبله الملك السعدي أبو عبدالله محمد المهدي استقبالاً يليق بمكانته الجُلّى وأنزله عنده وأكرم وفادته، كما تسابق العلماء وطلاب العلم للقائه من مختلف أنحاء البلاد حيث أخذوا عنه وناقشوه فيما يعنّ لهم من مسائل وطرحوا أمامه بعض المشاكل التي كانوا يرون أنه أهل لأن يكون له فيها رأي.

البدع تستفز الخروبي:

ما كاد الخروبي يستقر في مراكش (عاصمة السعديين) حتى لاحظ كثيراً من البدع فرأى أن من واجبه التنقل في أجزاء البلاد طولاً وعرضاً ليحصي على أهلها كل ما ينكره الشرع حتى يتمكن من أداء واجبه الديني الكامل.

ومن بين ما ساءه حلق كثير من الصوفيين والعلماء لشعر شاربهم، الأمر الذي جعله يشن عليهم حرباً شعواء أنسته مهمته الرئيسية التي دخل البلاد من أجلها

وقد ألّف رسالته الشهيرة المسماة (رسالة ذوي الإفلاس إلى خواص أهل مدينة فاس) كان لها وقع كبير على النفوس في الأوساط المغربية كلها، وأنقسم العلماء بها ولها إلى فريقين أحدهما يؤيد صاحبها كالشيخ الهبطي وتلامذته وزملائه، والآخر ينقم ويرد ويؤلب الجماهير والقصر الملكي ضدها.

وذلك كأبي عمرو القسطلي تلميذ الجزولي، وكالشيخ اليسيّنيّ مفتي حاضرة فاس آنذاك وأتباعهما، وقد بقيت آثارها الجدلية في المغرب مدة طويلة حتى بعد رجوع الشيخ الخروبي إلى الجزائر وهي التي يرجع لها الفضل الكبير في شهرة الخروبي في أنحاء المغرب كله، ولولاها لخفي علينا جانب هام من حياة الخروبي ومواقفه الصلبة مع الحق.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اهتمام الخروبي بالنواحي الدينية وثورته على الفساد المنتشر آنذاك في المغرب جعلاه لم يوفق فيما سافر من أجله، وقد ازداد الموقف بين حكام البلدين سوءاً حتى انتهى بقتل الحاكم السعدي[1].

ورغم فشله في المهمة السياسية فقد كان راضياً عن نفسه لأنه كان يرى أن الوضع الديني والانهيار الخلقي والمظاهر السائدة في المغرب لا تحتمل السكوت بقدر ما تحتمله الأوضاع السياسية، خاصة وأن تكوينه الطبيعي وتخصصه العلمي كانا يفرضان عليه بالدرجة الأولى تقديم المهمة الدينية على المهمة الدنيوية.

آثاره العلمية:

(1) ذكر الناصري في كتابه الاستقصاء ، ج5، ص2 قصة قتل الحاكم السعدي على يد بعض الفدائيين الأتراك الذين أرسلوا من القسطنطينية إلى المغرب الأقصى عن طريق الجزائر للغرض المذكور وقد رجعوا برأسه إلى الصدر الأعظم الذي أدخله على السلطان سليمان العثماني فأمر به أن يجعل في شبكة نحاس ويعلق على باب القلعة وفعلاً بقي معلقاً حتى شفع ابناه اللذان قدما من الجزائر على السلطان فيه فقبلت شفاعتهما. وكان مقتله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة.

ترك الخروبي للمكتبة الإسلامية آثاراً كثيرة وقيمة نالت إعجاب فطاحل العلماء وجهايذة العلم والمعرفة، لما احتوته من معارف ودقائق، وما جمعته من كنوز ودرر، والكثير منها ما زال موجوداً في مكتبات المغرب الأقصى والجزائر، وقد شاهدت بعضاً منها وهي بخط جيد في الخزانة الملكية بالرباط، وحبذا لو اعتنى بتحقيقها والكتابة عنها من أوفدتهم جامعتنا للدراسات العليا ممن تخرجوا من كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية "شعبتي التفسير والحديث والدعوة" ليسهموا بهذا العمل في التعريف بنهضتنا العلمية القديمة علاوة على قيامهم بواجبهم العلمي العظيم.

ومن بين الآثار العلمية الهامة التي تركها الخروبي ما يلي:

1- كفاية المريد وحلية العبيد: وواضح من عنوانه انه خاص بالحديث عن التصوف، وهو محل إعجاب وتقدير كل من شاهده واطلع عليه، وقد شبهه الكثير بتآليف حجة الإسلام الإمام الغزالي وذكر العلامة حسن العجيمي في معرض حديثه عن التصوف أنه من انفع الكتب حيث قال: "ومن المعلوم أن تفصيل السنن يطول ومن أنفع الكتب لمن أراد الجري على هذه المحجة الشريفة: كتاب كفاية المريد للشيخ الخروبي".

وبمثل ذلك حكم الشيخ السنوسي التلمساني.

2- وله شرح على رسالة أستاذه أحمد زروق المسماة "أصول الحقيقة والطريقة" وقد ذكر بروكلمان أن هذا الشرح موجود في مكتبة باريس تحت رقم 1380[1].

(1) ذكر بروكلمان ان الرسالة التي شرحها الخروبي تسمى: تأسيس عقائد التصوف وأصوله "وهي نفس الرسالة المذكورة، وليست رسالة أخرى، كما قد يتوهم، أنظر شرح الحكم العطائية لزروق تحقيق احمد زكي عطية، ص10.

3- كذلك له شرح آخر على رسالة أستاذه زروق المسماة "الأنس في التنبيه على عيوب النفس أو الرجز المعيوب" وهذه الرسالة كان الشيخ زروق قد نظم فيها كتاب عيوب النفس ومداواتها لعبد الرحمن السلمي ثم شرح الخروبي هذا النظم كما ذكرت، وتوجد نسخة لهذه الرسالة وشرحها في تونس الزيتونية جـ3 ص239 تحت رقم 1707، كما توجد نسخة أخرى في باريس تحت رقم 4953.

4- وله أيضاً كتاب مزيل اللبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس.

5- كذلك له كتاب الحكم الكبرى وشرحها وهي على غرار الحكم لابن عطاء الله السكندري وقد ذكر أستاذنا الفاضل الشيخ طاهر الزاوي أن الخروبي له شرح على حكم ابن عطاء الله[1]، ومعنى كلامه هذا أن الخروبي له شرح الحكم فقط وأما كتاب الحكم نفسه فهو لابن عطاء الله والحق أن كليهما للخروبي، وتوجد نسخة من كل منهما في تلمسان بالجزائر كما ذكر بروكلمان.

6- وله تفسير للقرآن الكريم كله واسمه "رياض الأزهار وكنز الأسرار" يقع في ثماني مجلدات وتوجد منه نسخة كاملة وبها أضرار في دار الكتب المصرية تابعة لمخطوطات مكتبة طلعت رقم 364 وردت إليها من زاوية الأندلس بالجزائر وكان قد أوقفها على تلك الزاوية الشيخ محمد بن محمد القرقني الأندلسي في أواسط جمادى الاخرة 1111هـ كما هو مكتوب على ظهر الورقة الأولى من تلك النسخة.

وقد قال في آخر جزء منه الذي كان قد ابتدأه بتفسير سورة "الحج" تم جميع التفسير بكماله والحمد لله حمداً يليق بكماله[2].

هذا: وقد أخبرت وأنا في الجزائر العاصمة سنة 1972م، أن تفسير الخروبي توجد منه نسخة في الجامع الأعظم الذي كان الخروبي خطيب جمعته عند إقامته بالجزائر، كما توجد به أيضاً نسخة من صحيح البخاري عليها تعليقات وسماعات

---

(1) انظر أعلام ليبيا، ص358.

(2) المصدر المذكور ، ص359.

الخروبي[1] بخطه، وقد اتصلت بمفتي المالكية الذي يقيم عادة في الجامع المذكور وذكرت له مجمل ما سمعته عن الكتابين المذكورين فأيد صحة الخبر وأثنى كثيراً على التفسير المذكور لأنه كما قال يتحدث فيه الخروبي بروح العصر الذي نعيشه الآن رغم مرور أربعة قرون ونيف على تأليفه، وذكر أن المؤرخ الجزائري المهدي أباعبدالله كان قد أخذهما منه منذ مدة قريبة، وكانت الظروف لا تسمح لي بمد إقامتي للبحث عنهما فلذا غادرت البلاد على أمل أن تسمح لي الظروف بمواصلة الدرس والتنقيب عن الخروبي وآثاره العلمية مستقبلاً.

7- شرح صلوات ابن مشيش وقد شاهدته في الخزانة الملكية بالرباط بخط يقرأ بسهولة وذلك سنة 1972م.

8- رسالة ذوي الإفلاس إلى خواص أهل مدينة فاس، وقد أشرت فيما مضى إلى أن لهذه الرسالة فضلاً كبيراً في تعريفنا بجانب هام من جوانب حياة الخروبي التي لولاها لظل ذلك الجانب خافياً علينا، والتي كانت سبباً في شهرة الخروبي في الأوساط المغربية كلها حتى إن معظم الكتب التاريخية التي تتعرض لتلك الحقبة قد أعطت أهمية عظمى للخروبي وموقفه الشجاع من العادات المنافية للشريعة الإسلامية في تلك الفترة رغم أنه كان ضيفاً على البلاد ولعل الرسالة المذكورة هي التي ذكر الناصري بأنه أطلع عليها[2]، ومعلوم أن الناصري كان قد توفى سنة 1315هـ الموافق 1897م فتكون تلك الرسالة موجودة في المغرب إلى زمانه المذكور غير أنه لم يشر إلى مكان وجودها، وأغلب الظن أن وجودها في المغرب غير

---

(1) ذكر الشيخ العمالي الجزائري في مذكراته قائمة الكتب التي اشتراها الشيخ سعيد قدورة مفتي الجزائر المتوفي سنة 1066هـ من تركة الخروبي وحبّسها على الجامع الأعظم المالكي بعاصمة الجزائر سنة 1050هـ، وكان من بينها نسخة صحيح البخاري المذكورة اعلاه والتي قال بخصوصها المهدي أبو عبدالله الجزائري: وجود هذه النسخة بأسانيدها بخط الخروبي تعد عند علماء الحديث ثروة لا تعوض.

(2) أنظر كتابه "الاستقصاء" ، ج5، ص27.

عسير لعظم مكانتها في أوساط المغرب كله وخاصة في الفترة التي كان الخلاف فيها مستحكماً بين خصومه وأنصاره مما يجعلها رائجة وفي متناول الجميع.

مكانته والأسباب التي حالت دون اشتهاره:

بإمكاننا أن نحكم على الخروبي من خلال آثاره العلمية المذكورة وتحركاته النشطة وأسفاره المتعددة إلى الأقطار المختلفة بأنه شخصية عظيمة خدمت العلم وقدمت للمكتبة الإسلامية زاداً له وزنه الرفيع، كما بذلت مجهوداً كبيراً في خلق وعي ديني وثقافة روحية علاوة على مساعيه المشكورة في سبيل توحيد صف المسلين وإزالة الضغائن والأحقاد وأسباب الشقاق بين الرؤساء وأولي الأمر في بعض الأقطار الإسلامية كما ألمحت إلى ذلك فيما مضى.

ورغم ذلك فإن الخروبي لم ينل من الشهرة ما ناله غيره ممن عاصروه وكانوا في درجته أو أقل منه علماً وحرارة للعمل، فهل هناك أسباب تكمن وراء ذلك؟

سؤال لابد وأن يتردد على شفاه الكثيرين ممن يطلعون على سجل حياته الحافل بالكفاح المليء بالأعمال، والجواب هو الذي سيحدد الجهة المسؤولة عن طمس معالم هذه الشخصية العظيمة أو عدم التعريف بها بالقدر الذي تستحقه آخذين في الاعتبار أن عدم الشهرة ليست دليلاً على عدم النبوغ والتفوق ولو لم يظهر لنا سبب يبرر عدم الشهرة بخصوص أستاذنا الذي نتحدث عنه، ولعلنا بعد الدراسة الجادة لحياة الخروبي نجد أن أهم العوامل التي أدت إلى عدم شهرته تنحصر في سببين:

الأول:

أن الخروبي بالإضافة إلى كونه فقهياً محدثاً مفسراً هو أيضاً صوفي من الطبقة الأولى والصوفيون يؤثرون عادة أكثر من غيرهم أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله بعيدة عن أنظار البشر لذا نراهم يعزفون عن الأمور التي تعرضهم للظهور

والشهرة، ويبتعدون عما من شأنه أن يجعلهم محط أنظار المجتمع، فهم بحق جنود مجهولون لا يعرفهم إلا من سار في طريقهم أو اقترب منها ولعلنا نلمس بوضوح كراهية الخروبي لحب الظهور والشهرة من خلال قوله في شرحه لرسالة أستاذه زروق "الأنس في التنبيه على عيوب النفس" : "إن كان العبد يظهر فعل الخير من التنسك والتعبد والصلاح، وكان في باطنه على غير ذلك فهو عيب من عيوب النفس العظيمة، ومن أخلاقها وأحوالها الذميمة، وهذا الوصف من اوصاف المنافقين وقد ذم الله قوماً كان حالهم مخالفة الظواهر للبواطن فقال تعالى: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وسبب هذا غلبة الرياء وحب المدح من الناس".

كذلك لو كان الخروبي حريصاً على الظهور أو على الأقل لا يمانع فيه لما عرض نفسه للفشل في المهمة التي سافر من أجلها للمغرب والتي كان قد استقبل من طرف الحاكم السعدي بسببها استقبالاً عظيماً، رجاء أن يتم على يديه إصلاح ذات البين وأن توضع نهاية للخصومة التي كانت بين السعديين في المغرب وبين الحكام الأتراك في الجزائر، وعندئذ يكتب له لواء التوفيق والفوز في تلك المهمة مما يجعله ذا شهرة عظيمة ومحل رضى تام من قبل الحكام وشعوبهم في كلا البلدين على حد سواء ولكن الخروبي عندما رأى الفساد منتشراً في المغرب آثر أن يقوم بواجبه الديني ضارباً بالشهرة الدنيوية عرض الحائط وناسياً حتى مكانته المرموقة عند الحكام الاتراك الذين أوفدوه لأنه إنما تهمه مكانته عند الله أولاً وبالذات ولو ترتب على هذا غضب البشر جميعاً.

وقد أشرت إلى هذا فيما مضى عند حديثي عن سفره للمغرب.

الثـــاني:

قد يكون لشدة تحامله على معاصريه الذين لم يلتزموا بآداب الإسلام او وقعوا في بعض الأخطاء في كل من المغرب والجزائر أثر كبير في التنفير منه وصرف

الناس عنه وإحكام الحصار حوله وحول ما يكتبه في تلك الفترة حتى لا ينتشر كثيراً خاصة وأنه كان غريباً عنهم وليس من بني وطنهم ولم يكن له أقارب يناصرونه ويدافعون عنه وبالتالي ينشرون فضائله ويتبنون إذاعة آرائه، علاوة على أنه كان يحظى بتقدير الحكام أكثر منهم مع أنهم أبناء البلاد الأصليون ويرون أنهم أولى بتلك الحظوة منه.

وأعتقد أنه حتى لو بقى في موطنه الأصلي "طرابلس" لن يحظى بأكثر مما حظي به في الجزائر والمغرب وتونس، نظراً لأن الظروف التي عايشها في الأقطار الأربعة لا تختلف كثيراً بل كانت طرابلس أسوأ حالاً حيث كانت مستعمرة في تلك الفترة، وقد فرّ هو بنفسه من ذلك الاستعمار، أضف إلى ذلك أن الإمكانيات التي من شأنها أن تساهم في إبراز مكانة العلماء وآثارهم العلمية بالقدر المشرف لم تكن متوفرة في ليبيا آنذاك مما جعل الكثير من علماء البلاد زيادة على صاحبنا الذي نتحدث عنه يبقون مطمورين بل تسبب في ضياع كثير من التراث الذي لو بقي لكان مفخرة لنا.

وإذا كان سلفنا معذورين في تلك الفترة من القيام بالواجب نحو علماء البلاد ومفكريها حيث لم يتمكنوا – للظروف السيئة التي عايوشها – من وضع آثارهم العلمية في الموضع اللائق بهم فإن من واجبنا ان نقوم الآن بإعطاء تراثهم ما يستحق من كامل التقدير وعظيم الاهتمام حتى يظهر للعالم ونستفيد منه نحن، وحتى يرى أبناؤنا أمجاد سلفهم وثمرة كفاح أجدادهم فيكون لذلك أثر وأي أثر في مستقبل حياتهم العلمية والعملية.

وأرى أن أقل واجب يتحتم علينا وعلى الجامعة الليبية بالخصوص نحو عالمنا المفضال الشيخ محمد الخروبي هو تجميع شتات كتبه ومؤلفاته التي أشرت إلى اماكن وجود معظمها في المكتبات العالمية ووضعها في مكتبة الجامعة ليسهل على الباحثين الرجوع إليها وإظهارها إلى القراء الكرام.

مــواقف وتضحـــيات:

من خلال العرض السابق يتضح لنا أن الخروبي من الطراز الذي ينسى نفسه ولا تهمه الأتعاب الدنيوية في سبيل تأدية رسالة الحق والهداية، ومن أجل ذلك ترك بلاده عندما تعذر عليه القيام بواجبه الإصلاحي فيها، وجاب أقطار المغرب العربي الأخرى كلها باحثاً عن المناخ الذي يمكن أن يؤدي فيه رسالته ، وقد كانت له في كل بلد ذكريات حميدة ومواقف بطولية ومناظرات كثيرة بينه وبين العلماء والمفكرين وذوي الإصلاح.

وقد ذكر الناصري أن الشيخ الخروبي رأى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي يكثر من تلقين الذكر والأوراد للعوام فلامه على هذا الصنيع قائلاً له أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعوام حتى النساء فأجابه بقوله: دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر، قال الشيخ الخروبي: فوجدته أوسع مني دائرة، وهذا بالطبع اعتراف منه بحسن ما فعل الراشدي، وهكذا يكون أصحاب النفوس البريئة الطاهرة لا يتعصبون لرأيهم إذا ظهر لهم عدم صلاحيته لأن همهم معرفة الحق أين وجدوه ساروا في طريقه وتقبلوه عن رضى واطمئنان.

وفاتـــــــه:

بعد عمر مديد قضاه الأستاذ الخروبي في الكفاح والجهاد بلسانه وقلمه ودع الدنيا مفارقاً الأصدقاء والأحبة راضياً عن نفسه مؤملا رضى ربه وكان ذلك أثناء انتشار الوباء في الجزائر سنة 963هـ عن سن تناهز الثمانين، وقد ترك بموته فراغاً كبيراً في المنطقة، كما خلف أسى وحسرة لدى محبيه وعارفيه جميعاً، ودفن خارج عاصمة الجزائر، وكان قبره معروفاً ويزار، وقد ذكر الناصري في رحلته أنه زار عند مروره بالجزائر ضريح الشيخ الخروبي الذي كان خارج مدينة الجزائر، ولكنه الان غير معروف وسبب ذلك أنه لم يجد من يحافظ على مواصلة التعرف عنه والتعريف

بـه، لأنـه كمـا نعلـم مـات غريبـاً عـن وطنـه الأصـلي عـلاوة علـى أن كتـب التـراجم لـم تذكر لنـا أنـه خلـف عقبـاً من بعده ممـا سـاعد علـى نسيان ضـريحه كمـا سـاعد علـى إهمال آثاره العلمية لأن الشأن والواقع يدلان على أن الأحفاد أكثر حرصـاً علـى حفظ مـا لأصـولهم من آثـار ومـآثر. رحـم الله الخروبـي رحمـة واسـعة، ونفعنـا بتراثـه وسـيرته العطرة.

هذا : وأرى أنني بهذا الجهد المتواضع قد وضعت لبنة صلبة في أساس البنـاء الـذي نتمنـى أن يقـام بسـرعة فـي بلادنـا والمتمثـل فـي القيـام بـدور هـام نحـو تراثنـا ومقدساتنا وما خلفه لنا أجدادنا.

وقد كلفني رغم تواضعه جهداً ووقتاً، ويمكن لغيري أن يستكمل الجوانب التي لـم نـتمكن من استكمالها، وخاصـة دراسـة كتـب الخروبـي نفسـها وإخـراج مـا فيهـا من معلومات ومعارف تسهم في استكمال الجوانب التي لا يمكن الكتابة عنها حالياً إما لعدم وضوحها حيث اهملت في كتب التراجم، وإما لأنها لا تظهر إلاَّ من خلال دراسة كتبه دراسة نصية تحليلية.

ولعلى بعد الإشارة إلى أماكن وجودها فيما مضى أكون قد أسديت خدمة لا يستهان بها للباحثين والمحققين، على أنني أعدُ القارئ الكريم بمواصلة الإعداد لدراسة أشمل وأكمل لكل ما يتعلق بالشيخ الخروبي وآثاره العلمية ولعلي أتمكن من ذلك قريباً إن شاء الله.

المراجـــــع

1-الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، أبو العباس أحمد الناصري.

2-شجرة النور الزكية – لمخلوف.

3-معجم المؤلفين ، ج11، ص6 –لعمر رضا كحالة.

4-الأعلام – للزركلي.

5-بروكلمان.

6-هدية العارفين للبغدادي، ج2، ص245.

7-شرح الحكم العطائية لزروق تحقيق أحمد زكي عطيه.

8-محاضرة المهدي أبو عبدالله الجزائري عن الخروبي "مخطوطة".

9-أعلام ليبيا للشيخ طاهر الزاوي.

10-المنهل العذب لأحمد النائب.

11-مجلة كلية الآداب العدد الثاني كتابة كنون على زروق.

12-نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان –لأحمد النائب.